

الأسس النفسية والاجتماعية لظاهرة الحرب

خالد جميل محسن، كايد يوسف قرعوش*

ملخص

ظاهرة الحرب قديمة قدم التاريخ، حتى عدها بعضهم أم التاريخ، تناولتها أقلام الفلاسفة، والمفكرين السياسيين، والمؤرخين، وعلماء النفس والاجتماع، بالدراسة والتحليل، وبرزت نتيجة لذلك نظريات شتى بصدد تفسير هذه الظاهرة التي تفرض نفسها بقوة على الساحة الدولية، قديماً وحديثاً، ويأتي هذا البحث إسهاماً في بلورة النظريات المتعلقة بنشأة الحروب، ولاسيما من الناحيتين النفسية والاجتماعية بما يتيح مناقشة هذه النظريات، سواء في ذلك نظريات التحليل النفسي، أو نظريات الصراع الاجتماعي التي تعد في غالبيتها إفرازاً من إفرازات النظرية الداروينية، والمادية الجدلية.

الكلمات الدالة: الحرب، الصراع السياسي، الصراع الاجتماعي.

المقدمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد،
فمنذ كانت الخليقة الأولى، ومضت الإرادة الإلهية أن يكون آدم خليفة الله في أرضه، كان سؤال الملائكة المكرمين: "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء". (البقرة: 30). ولم يمض كبير وقت حتى وقعت الجريمة الأولى، حين استهدف أحد ابني آدم أخاه بالقتل، لا لذنب جناه، إلا لحاجة في نفس (قابيل) قضاه.

ثم توالى حوادث القتل والاقتتال بين بني البشر، وتفجرت الحروب في كل أصقاع الأرض، ولتغدو الحروب أكثر الظواهر البشرية تجلياً، وأكبر الحقائق التاريخية رسوخاً، لا تدفعها أمانى أصحاب (المدنية الفاضلة) من أمثال الفارابي، ولا تخيلات كتاب (اليوتوبيا)¹ من أمثال توماس مور (1478-1535). إنها الحرب التي وصفها هيراقليطس -الفيلسوف اليوناني - بقوله إنها أم الأشياء كلها، وهي ملكة جميع الأشياء، ترفع البعض إلى مرتبة الآلهة، وتجعل من البعض الآخر بشراً، كما تجعل البعض عبيداً، والبعض الآخر أحراراً. (هنا، 2007: 38) أو كما يقول جاستون بوتول: "إن الحرب هي التي ولدت التاريخ، فالتاريخ بدأ في الواقع بكونه تاريخ المعارك المسلحة دون غيره، ولعله سيبقى دوماً "تاريخ المعارك" .. (بوتول، 1981: 5)

أو كما قال جاك غيتون: "إن الحرب هي القانون الدائم للعلاقات"، وهي "نابض التاريخ". (غيتون، 1988: 83-84).
أو كما قال الدكتور محمد طه بدوي: "إن الحرب لا تعني في حقيقتها إلا القتل المنظم... إنها القتل الذي يجعل من القاتل بطلاً، ومن القتيل شهيداً في فريقه ولا يستحق الحياة عند قتلته". (بدوي، 1974: 9)

وإذا كان هذا الوصف يصدق على الحروب القديمة التي شهدتها الأمم عبر تاريخها، فإنه يصدق بالضرورة على حروب عصرنا الحاضر، الذي يشهد سباقاً رهيباً في التسلح لم تعرفه الأمم الماضية، وترصد لهذا الأمر موازنات ضخمة تتقاصر أمامها الموازنات الخاصة بالتربية والتعليم، والزراعة والغذاء وغيرها، حتى إنه ليؤثر عن الرئيس الأمريكي أيزنهاور قوله: "إن كل مدفع يصنع، وكل سفينة تدشن، وكل صاروخ يطلق، تمثل في التحليل النهائي سرقة من أولئك الذي يعانون الجوع ولا يطعمون، والذين يعانون البرد ولا يكسون" (اللجنة العالمية للبيئة والتنمية، 1989: 422).

* كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة العلوم التطبيقية الخاصة، تاريخ استلام البحث: 2019/7/4، وتاريخ قبوله: 2019/8/9.

1. كلمة "يوتوبيا" أو "أوتوبيا" في اللغة اليونانية مشتقة من كلمتين (Ou) بمعنى (لا) و (Topos) بمعنى (مكان)، وعلى هذا فهي تعني (ليس في مكان)، إشارة إلى مجتمع مثالي خيالي لا يعرف الشرور التي تعاني منها البشرية، ولا يكاد يوجد في بقعة على وجه الأرض، بل في أماكن نائية وجزر متخيلة يصطنعها الكاتب. وكان (توماس مور) أول من وضع كتاباً بعنوان (utopia) في العصر الحديث (من مقدمة كتاب: برنيري، 1997: 9)

أهمية الدراسة:

تتبع أهمية هذه الدراسة من خلال محاولتها تسليط الضوء على الأسس النفسية والاجتماعية وعلى النظريات المتعلقة بظاهرة الحرب ونظرة الفلاسفة والمفكرين السياسيين إلى الحرب قديماً وحديثاً. وإن فهم وتفسير هذه الأسس يعطي الدراسة أهمية إضافية، حيث يؤمل منها أن تكون مكملة للدراسات المتعلقة بهذا الموضوع، وأن ترفد المكتبة الأردنية خاصة والعربية عامة بدراسة جديدة.

أهداف الدراسة:

تسعى هذه الدراسة من خلال مضمونها إلى تحقيق جملة من الأهداف المتمثلة على النحو الآتي:

1. التعرف إلى الأسس النفسية والاجتماعية لظاهرة الحرب.
2. تحليل النظريات المتعلقة بنشأة الحرب.
3. توضيح معاني المفاهيم والمصطلحات المتعلقة بالنظريات.
4. مناقشة النظريات المتعلقة بنشأة الحرب والترجيح فيما بينها.

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

شهدت البشرية منذ القدم الكثير من القتال والحروب بين بني البشر، لعدة عوامل، منها: الاقتصادية، الجغرافية، الدينية والسياسية؛ وذلك لتحقيق أهداف خاصة ذات علاقة بهذه العوامل. وإن القادة العسكريين وعلى مر العصور يضعون العامل النفسي والاجتماعي كبعد آخر في ميادين الحرب، يتم الإعداد والتخطيط والتطوير في استخدامه لسرعة حسم الحرب. تدور مشكلة الدراسة حول فهم وتحليل العامل النفسي والاجتماعي لظاهرة الحرب، وعليه ستحاول الدراسة الإجابة عن التساؤلات التالية:

1. هل الحرب قدر محتوم لا تستطيع البشرية تجنبه؟
2. هل الحرب ظاهرة اجتماعية أم ظاهرة فطرية؟
3. ما النظريات التي يمكن من خلالها تفسير ظاهرة الحرب؟
4. ما تفسير نشأة هذه الحروب وديمومتها؟
5. هل الحرب مفهوم مقابل لمفهوم السياسة أم أنه جزء منه؟

خطة الدراسة:

لعل هذه التساؤلات تسعف في تحديد عناصر هذا البحث، وتلقي بظلالها على أبعاده ومضامينه، وعليه سيتم معالجة هذا البحث ضمن المباحث التالية:

المبحث الأول: نظرات عامة في الحرب، ويتناول الحديث فيها مفهوم الحرب وعلاقتها بالطبيعة البشرية، وبيان ما إذا كانت هذه الظاهرة طبيعية فطرية أو اجتماعية.

المبحث الثاني: يتحدث عن النظريات النفسية المتصلة بالحرب، كنظرية التحليل النفسي وما إليها.

المبحث الثالث: يتحدث عن النظريات الاجتماعية ذات العلاقة مما له اتصال بالعرقية والداروينية والصراع الطبقي لدى الماركسية.

الدراسات السابقة:

كثيرة هي الكتب والبحوث المتعلقة بالحرب، وإن إطلالة سريعة على مراجع هذه الدراسة تظهر مدى كلف الباحثين من سياسيين وعسكريين ومؤرخين وعلماء نفس واجتماع بالحديث عن الحرب، ولكن الحديث عن النظريات التي تفسر نشأة الحروب كانت أقل تناولاً واهتماماً. ومن الدراسات التي تناولت جوانب من هذا الموضوع وغيره:

1. بوتول، غاستون (1963)، "الحرب والمجتمع"، دار المعرفة الجامعية.
2. أبو هنطش، "محمد توهيل فايز" (1988) "علم الاجتماعي السياسي"، دار المستقبل، عمان.
3. بدوي، منير محمود (1997)، "مفهوم الصراع : دراسة في الأصول النظرية للأسباب والأنواع"، مجلة دراسات مستقبلية،

مركز دراسات المستقبل، جامعة أسيوط، مصر.

وتناولت هذه الدراسة ظاهرة الصراع باعتبارها ظاهرة ذات أبعاد متناهية التعقيد، يمثل وجودها أحد معالم الواقع الإنساني الثابتة، إذ أنّ الخبرة البشرية بالصراع تعود إلى نشأة الإنسان الأولى، حيث عرفت علاقاتها في مستوياتها المختلفة: فردية كانت أم جماعية، وأيضاً في أبعادها المتنوعة: نفسية أو ثقافية، سياسية أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو تاريخية. كما هدفت الدراسة تقديم إطار مقارن لفهم وتحليل مفهوم الصراع: طبيعته، أسبابه، وأنواعه. وإن هذه الدراسة تبنت وجهة النظر التي ترى أن الطبيعة المعقدة والمتداخلة للصراع تجد جذورها في مصادر متنوعة؛ منها ما يرجع إلى تعدد أبعاد الظاهرة الصراعية ذاتها، ومنها ما يتعلق بتداخل مسبباتها ومصادرها من جانب، إضافة إلى تشابك تفاعلاتها وتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة من جانب آخر، هذا فضلاً عن التفاوت في مستويات الظاهرة من حيث المدى أو الكثافة والعنف. وعلى ذلك، فإن الدراسة تعتمد على تقديم تحليل مقارن للاتجاهات النظرية الرئيسية في مجال الصراع.

4. أريكسون، توماس هايلاند (2012)، "القومية والعرقية"، مجلة عالم المعرفة.

يتناول هذا الكتاب العرقية والقومية، ويعتبرها المؤلف من السمات واسعة الانتشار في عالمنا الحاضر، وفيه يوضح أنّ العرقية هي جانب ديناميكي ومتحول وأنها أبعد ما تكون عن كونها خاصية ثابتة للجماعات. كما يبحث المؤلف في هذا الكتاب عن أثر الهوية ممثلة بالقومية مرةً والعرقية مرةً أخرى في الصراع بين المجتمعات داخلها وخارجها.

5. هوتون، دافيد (2015)، "علم النفس السياسي"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

وفيه تناول المؤلف موضوع علم نفس القومية والصراع الأثني والإبادة الجماعية، وعلم نفس العنصرية والإرهاب، وعلم نفس العلاقات الدولية. يفرض هذا الكتاب إلى وجود نمطين رئيسيين من المقاربات لفهم السلوك السياسي الإنساني: دور الفرد في المجال العام من نزعاته أو خصائصه أو الشخصية أو انتمائه الحزبي؛ أم الأخرى فهي المقاربة النزوعية التي ترى أن شخصية الفرد واعتقاداته وقيمه وحتى موروثاته الجينية، أكثر تأثيراً في هذا المجال، بل يمكن، على العموم، النظر إلى السلوك السياسي على أنه حدث مدفوع بأسباب داخلية أو مؤثرات خارجية أو بمزيج منهما.

وميزة بحثنا أنّه استقصى النظريات المتعلقة بنشأة الحرب من مظانها، وتوسع في مناقشتها وتجليتها على نحو لم تتطرق إليه الدراسات السابقة.

المبحث الأول: نظرات عامة في الحرب

يتشعب الحديث في هذا المبحث إلى مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: نظرة الفلاسفة والمفكرين السياسيين إلى الحرب:

الفرع الأول: مفهوم الحرب

الحرب لغة نقيض السلم. يقال: حُرب الرجل ماله أي سلبه. وتعني التحريش وإثارة الغضب المفضي إلى العداوة. (ابن منظور، لسان العرب، مادة حرب).

وأما اصطلاحاً فتتعدد تعريفاتها بتعدد الباحثين، ومن ذلك:

- عرفها فان غلان بأنها: "صراع عن طريق استخدام القوة المسلحة بين الدول بهدف التغلب بعضها على بعض" (فان غلان د.ت: 7/3)، وبذا فقد أخرج الصراع بين الأفراد والمجموعات من مفهوم الحرب.

- وعرفها كلاوزفيتز بأنها: "عمل من أعمال العنف يستهدف إكراه الخصم على تنفيذ إرادتنا" (كلاوزفيتز، 1988: 74). وعليه فإن الحرب ليست غاية في ذاتها، ولكنها فقط أداة سياسية.

- وينقل (بوتول) عن (كينسي رايت) تعريفه للحرب بأنها: "الأساس القانوني الذي يتيح لجماعتين، أو عدة جماعات متعادية، أن تحل النزاع فيما بينها بقواتها المسلحة" ثم يقترح التعريف التالي ليقول أن: "الحرب هي صراع مسلح ودموي بين جماعات مختلفة" (بوتول: د.ت: 48، 49)

وواضح أن التعريفين الأخيرين لا يقصران الحرب على ما يقع بين الدول من نزاعات مسلحة، وإنما يدرجان في ذلك الحروب القائمة بين الجماعات، وهو أولى، فماذا نسمي تلك النزاعات التي تقوم بها حركات التحرير ضد الأنظمة الاستعمارية والأنظمة الدكتاتورية؟ وماذا عن تلك المعارك الدموية التي كانت تحدث بين القبائل، ومنها القبائل العربية في جاهليتها وإسلامها؟ هذا ولا يمكن تحقيق مفهوم الحرب يمضي دون بيان لعلاقته بمفاهيم أخرى كالصراع والسياسة. وهي مفاهيم ذات تماس مباشر معه.

وأما عن العلاقة بين الحرب والصراع فقد ورد في بعض التعريفات السابقة وصف الحرب بأنها صراع، ولكنها صراع مسلح، وذلك أن أشكال الصراع لا حصر لها، وهذه الأشكال يمكن أن تحدث ضد أشياء لا حياة فيها، أو ضد خصوم لا شعور لهم، في حين أن الحرب تفرض وجود عدو نشيط منظم، كما تتضمن صراع الإرادات. (بوتول، د.ت: ص 45-64).

- وعن العلاقة بين الحرب والسياسة، وما إذا كانت الحرب قسيما للسياسة أو قسما منها، يقول (جوليان فرنذ) إن الحرب ليست إلا أداة سياسية، وإن القول بتبعية السياسة للحرب مجرد فكرة عبثية، طالما أن السياسة هي التي تجر وراءها آلية الحرب الفظيعة. إن السياسة ملكة فكرية، وما الحرب سوى أدواتها العملية. (فرنذ، 1965: 658-965)

ويقول كلاوزفيتز: "إن السياسة هي الرمح الذي تنمو فيه الحرب" (كلاوزفيتز، 1988، 58)، "وإن امتزاجهما هو الذي يصنع النصر، فليست الحرب في الواقع تابعة للسياسة كما يتبع العسكري المدني، إن الحرب هي أعلى أشكال السياسة". (كلاوزفيتز، 1988، 63). إن الحرب جزء من العلاقات السياسية فهي لا تشكل بالتالي شيئاً مستقلاً. إن الحرب لا تشكل سوى استمرار العلاقات السياسية مع استخدام وسائل جديدة أخرى تدخل في الموضوع وتضاف إليه" (كلاوزفيتز، 1988، 475، 476)

الفرع الثاني: النظرة إلى الحرب بين القديم والحديث

أولاً: الحرب في عيون الأقدمين

غلب على الحضارات القديمة ولعها بالحرب حتى جعلت للحرب آلهة. فالليونان اتخذوا الإله (زيوس)، والرومان (مارس) والمصريون (حورس). (أبو هنطش، 2010: 91)

إضافة إلى ذلك فإن اليونانيين مجدوا الحرب في أدبهم، فقد وضع هوميروس ملحمة الإلياذة في القرن السابع قبل الميلاد، وفيها يحكي قصة انتصار (أجاممنون) اليوناني على (بريام) ملك طروادة. (تايلور، 2000: 41)

ومضى الفلاسفة اليونانيون على هذا النهج، فهم يعدون الحرب جزءاً من نظام الله على وجه العموم. والحرب - في نظر هيرقليط - آلة هذا النظام الإلهي، والحرب أم جميع الأشياء، فهي تجعل من بعضهم آلهة، ومن الآخرين عبيداً أو أحراراً. (بوتول، 1981: 9). ويرى أفلاطون في جمهوريته أنه لا مفر من الحرب بين دولته المثالية والدول المجاورة، فلا شيء أهم من أن يتقن الجندي عمله. وإلى مثل ذلك ذهب سقراط. (برودي، 1985: 107).

وصحيح أن المدرسة الرواقية التي أسسها زينون (360-312 ق.م) قد جنحت إلى الزهد ودعت إلى نبذ الحرب، إلا أن ذلك لا يغير من حقيقة الوضع عند اليونان.

وبالانتقال إلى روما قاهرة العالم، ومسقط رأس الحضارة الغربية، فقد وجدت النزعة الاستعمارية لدى الرومان، نزعة ما زالت ممتدة في أعقابهم، فقد كانت الحرب جزءاً أصيلاً من الحياة الرومانية، حتى امتدت إمبراطوريتهم من إسبانيا وبريطانيا غرباً، إلى الخليج وبحر قزوين شرقاً، وكان أداء الخدمة العسكرية من المؤهلات الأساسية للحصول على منصب سياسي على مدى تاريخ الإمبراطورية الرومانية ما بين (57ق.م - 510 م). (تايلور، 2000: 56)

وفي نظر الباحثين فإن الفلسفة الهندية هي على شاكلة ما لدى اليونان من آلهة للقتل والتدمير، فهناك الإله (شيفا) المدمر، والإلهة (كالي) التي تعتبر تشخيصاً للموت والدمار، ومظهرها يثير الرعب، فهي ترتدي جلد نمر، تنقلد قلادة من جماجم، وتحمل في يدها عصا تعلوها جمجمة، وفي الأخرى أنشودة الموت، ويفتح فمها فاغراً عن لسان دموي يبرز من لثات حادة الأنياب، ولها عيون غائرة حمرة... (كولر، 1995: 158، 159)

وكما في الإلياذة هناك ملحمة (مهاب هارتا) التي وضعها (وياس بن بوسرا) سنة 950 ق.م وهي تصف حروباً بين أمراء من الأسر المالكة، وقد اشتركت الآلهة في هذه الحرب. (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، 1418 هـ: 735/2)

وأما في الحضارة الصينية فالأمر أهون من ذلك، إذ تكاد تكون الحضارة الوحيدة التي لم تحبذ الحرب، وقد أثر عن كونفوشيوس قوله: "إن قائداً عظيماً حقاً لا يحب الحرب، ولا يكون محباً للانتقام". (بوتول، 1981: 18).

ثانياً: الحرب في أعين المحدثين

لعل من الصعوبة بمكان انتقاء آراء الفلاسفة والمفكرين حول ظاهرة الحرب، الأمر الذي يجعلنا نقنع بذكر طائفة مختارة منهم، مكتفين من القلادة بما أحاط بالعنق، ولعل في بيان موقف أكثرهم من السلام مؤشراً على موقفهم من الحرب.

فهذا توماس هوبز يرى أن الحرب هي من طبيعة الإنسان، ولم يميز بين العمل السياسي والحرب، والسلام عنده ليس أكثر من غياب للحرب (حتى، د.ت: 307)

ويعرضي الفيلسوف (كانط) إلى القول بأن التاريخ يتجه بالأمم إلى التخلص من حالة العنف والحرب، ويشكو من أن الحكام لا

يملكون المال لإنفاقه على التربية والتعليم، لأنهم قد رصدوا جميع مواردهم للحرب. (أبو هنطش، 2010: 89) ويرى نيتشة أن العالم ليس إلا علاقات قوى، وأن الحرب بين القوى هي القاعدة، وأن السلم ليس إلا حالة عارضة بين إرادات متساوية، تتربص إحداها بالأخرى للوثوب عليها عندما تتاح الفرصة، وأن الحضور الإنساني (إرادة القوة)، ولذا فإنه يقدر الحرب مهما كانت وسائلها ونتائجها. (التلي، 2007: 79-80)

كان نيتشة يريد خلق الإنسان المتفوق، جباراً كشمشون، شاعراً كداود، حكيماً كسليمان. (ملحم، 2007: 244) وقد لقي هذا الفكر إعجاباً لدى زرادوسترا (زرادشت) الذي قال: "أحب السلام كوسيلة لتجديد الحروب، أفضل سلام ما قصرت مدته". وقال: "تقولون: العمل الصالح يقدر الحرب نفسها، أما أنا فأقول لكم: الحرب الصالحة هي التي تقدر كل شيء" إلى أن يقول: "إن الإنسان الحر محارب". (هنا، 2007: 42، 43).

وقد وجدت النازية والفاشية في هذا الفكر مادة خصبة تبني عليها فلسفتها، يقول هتلر، زعيم النازية، في كتابه (كفاحي): "إن الجنس البشري لم يرتفع شأنه إلا بكفاحه المستمر، وإن السلام الدائم يقوده إلى الاندثار". وإلى مثله دعا موسوليني (زعيم الفاشية) حين قال: "إن السلام كلمة رنينها كرنين العملة الزائفة" (عبد المنعم، 1988: 47)

وأما جاك غيتون فيرى أن الحرب قدر إلهي محتوم، وأنها القانون الدائم للعلاقات، وأن سياسة السلم ليست سوى سياسة توازن وخداع بين الأمم. (غيتون، 1988: 83، 121)

ويمضي (مولتك) إلى حد القول بأن السلام الدائم حلم من أحلام البشرية، إلا أنه ليس حلماً جميلاً فالحرب تؤكد حقيقة الإنسان " (برودي، 1985: 118)

ويمضي جوليان فرند إلى أن السلم مفهوم سياسي يشارك في الصراع السياسي، وأن مجموعة التسويات والاتفاقيات لا غاية لها سوى التأخير المؤقت للحرب، وأن السلام الدائم فكرة لا معنى لها، وأنه النتيجة للحرب في جميع أشكالها، ولن يكون صداقة نهائية وتامة، بل حالة من توازن العداوات الدائمة بين البشر " (فرند، 2016: 684-698)

وهذه المقولات والأفكار لقيت تجاوباً لدى الدكتور محمد طه بدوي، ففي كتابه (فروض علمية في تفسير علاقات الحرب والسلام) يقول: "وهكذا فإن العلاقات الدولية هي - بالضرورة وعلى طول تاريخها - علاقات ما بين الأعداء، اللهم إلا ما يقتضيه العداء ذاته من مهانة ليست البتة من طبيعة هذه العلاقات، وما فكرة المجتمع البشري العالمي المتخلص من أسباب التضاد، ومن ثم الذي ينعم بالسلام الدائم، إلا من نسج الخيال البحث، إنها تنتمي إلى عالم " ما يجب أن يكون: ولا صلة لها البتة بعالم " ما هو كائن ". إن السلام كالمحبة قيمة أخلاقية جمالية لا مكان لها في الواقع الدولي " (بدوي، 1974: 24) هذا، وبالرغم من كل ما تقدم، وجد من الفلاسفة المتأخرين من يعارض الحرب بكل أشكالها، فهذا الفيلسوف البريطاني (برتراند رسل) يحاكم بسبب معارضته للحرب العالمية الأولى عام 1916، ويدخل السجن بتهمة العصيان المدني عام 1961 حيث كان يتزعم الحملة التي تدعو إلى نزع السلاح النووي من جميع أنحاء العالم. (ملحم، 2007: 245)

وقد عرف عن تولستوي وغاندي موقفهما المناوئ للعنف والحرب في مختلف صورهما كذلك.

المطلب الثاني - الحرب بين كونها ظاهرة طبيعية أو اجتماعية:

اختلف علماء النفس والاجتماع والسياسة في توصيف هذه الظاهرة، فهل تمتد جذور الحرب والعنف إلى عمق الطبيعة البشرية، بمعنى أن تكون غريزة متجذرة في النفس الإنسانية؟ أم أنها إفراز للتفاعلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومن ثم فإنها لا تعدو أن تكون فعلاً مكتسباً له أسبابه ودوافعه؟ الجواب على ذلك معاد في السؤال، وبيان ذلك فيما يلي

أولاً: القائلون بأنها ظاهرة طبيعية:

يقف أصحاب مدرسة التحليل النفسي من الفرويديين على رأس القائلين بهذا الرأي، ويلقي بعضهم مسؤولية الحرب على ما يسمونه بنظرية (قتل البنين)، وهذه النظرية التي تقوم على كره الآباء لأبنائهم، فتراهم يرسلونهم إلى الحرب على أمل ألا يعودوا. وهي نظرية مستمدة من عقدة أوديب.² (برودي، 1985: 140)

وقد يكون هذا المعنى هو السائد لدى علماء الاجتماع في أوروبا وأمريكا، ويؤيدهم في ذلك عدد من الباحثين من أمثال

². تستمد هذه العقدة اسمها من أسطورة يونانية قديمة تحكي أن (أوديب) ملك طيبة سيقدم - كما تنبأ الكهنة قبل ولادته - على قتل أبيه (لاريوس)، وسيزوج أمه (جو كاست)، مما دفع إلى إلقائه في الغابة ليموت، ولكن تم إنقاذه، ثم كبر لتسوقه الأقدار إلى طيبة مسقط رأسه، وفي الطريق تشاجر مع شخص فقتله وتزوج أرملته وكان القتل هو أباه، والزوجة هي أمه، وهو لا يعلم، وعندما تبين له الأمر سمل عينيه وانحدرت أمه. (كليبنرغ، 1967: 213، 214)

مارغريت ميد، وبيتر كوبر، وفيرنر ليفي، وكارل لورنتس، وغيرهم. (أبو هنطش، 2010: 77). ويقول جوليان فرنس: "نلعن الحرب أم لا، تظل هي في أعماق طبيعتنا البشرية، فهي إحدى الصفات الأساسية لشرطنا على الرغم من أنها غير مبررة، مثلها مثل الشر " ثم يقول: "كي نقهر الحرب علينا أن نحل المتعذر حله، جدلية الخير والشر، السعادة والشقاء، العقلانية والعقلانية". (فرنس، 2016: 666، 665).

ثانياً: القائلون بأنها ظاهرة اجتماعية

يميل علماء الاجتماع إلى اعتبار دافع الاقتتال مكتسباً وليس فطرياً، وذلك بالنظر إلى أوضاع كثير من المجتمعات البدائية التي هي أقرب إلى الوضع الطبيعي للمجتمع الإنساني، وقد ذكر (هوبهاوس) أن هناك من القبائل من لم تعرف الحرب أبداً، وقد عد عشرها منها، وأزره في ذلك عدد من الباحثين من أمثال (لوترونو) و (فاندريج) و (إيليوسميث). وقد وجد (بوسي) أن قبائل الكوكوتيل، من الهنود الحمر في كندا، تلجأ إلى حل خصوماتها بدعوة الفراق إلى حفل شاي يتبارى فيه الخصوم بالتنازل عن ممتلكاتهم، والفائز من يتنازل عن ممتلكات أكثر من خصمه. (كلينبرغ، 1967: 130-137) ويذهب بعض علماء النفس إلى ما أخذ به جمهرة علماء الاجتماع، ومن هؤلاء (وليم جيمس) في مقال له بعنوان "المرادفات الأخلاقية للحرب". يشابهه في ذلك (جون ديوي) الذي ركز على أثر الظروف الاجتماعية في إثارة الحروب. (ديوي، 1963: 513، 134)

ويتفق (إرون) مع مونتسكيو في وصفه الحرب كظاهرة اجتماعية، وليست ظاهرة طبيعية، وما على رجل الدولة إلا السعي للتخفيف من ضراوة الحرب، دون القضاء عليها، (كينيث، (د.ت): 259) وغني عن البيان أن ميكا فيلي ونيتشة يعدون الحرب ظاهرة اجتماعية، بل إن من الفلاسفة والمفكرين من يمضي إلى أنها أعظم الظواهر الاجتماعية والتاريخية، حتى قيل إن الحرب هي التي أنجبت التاريخ، وأنها أشد علامات التاريخ وضوحاً. (جميل، 2007: 9)

ولا بد في هذا المقام من التنويه لما ذكره ابن خلدون في (المقدمة) من ربط الحروب والاقتتال بالعصبية التي هي درع الملك وحصنه، فهو يقول بأن الملك يستلزم التغلب والحكم بالقهر، وإذا ما بلغ رتبة طلب ما فوقها، فإذا بلغ رتبة السؤدد ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس... "ابن خلدون، (د.ت): 139) ويناقش أصحاب هذه النظرية خصومهم بأن الحرب لو كانت أمراً غريزياً لأفضى ذلك إلى القول بالحد من قدرة العقل البشري على وضع وسائل ضابطة لإيقاف أو تضيق أو إزالة هذه الغريزة المميتة. (أبو هنطش، 2010: 152) و إن ضبط غريزة القتال والعدوان وتوجيهها أمر ممكن، أما كبتها ووقفها فأمر خارج عن القدرة والاستطاعة، وأنا أميل إلى القول بأن ظاهرة الحرب ترتد إلى أصول غريزية كامنة هي من صلب الطبيعة البشرية، وهذه الغريزة تهيجها وتستثيرها الظروف والعوامل الاجتماعية السائدة، وأن التحدي الأكبر الذي يواجه الجنس البشري يتمثل في إمكان تطويق هذه الظاهرة والحد منها بالتربية والتعليم، وهذا ما يفهم من ظاهر قوله تعالى: "والكاظمين الغيظ" (سورة آل عمران: 134) فإن كظم الغيظ محاولة لإلجامة دون إعدامه.

المبحث الثاني: النظريات النفسية بشأن نشأة الحرب

بينما فيما مضى علاقة الحرب بالسياسة، ونضيف أن للسياسة ارتباطاً بعلم النفس، إذ ظهر في القرن العشرين علم يعرف (بعلم النفس السياسي)، وهو علم يعنى بالتفاعل ما بين السياسة وعلم النفس، وخصوصاً تأثير علم النفس في السياسة - ويعد (هارولد لا سويل) من الرواد الذين اقتحموا ساحة هذا العلم في كتابه (علم النفس والسياسة) عام 1930 وقد أرففه بكتاب آخر (القوة والشخصية) عام 1948.

وقد شهد عام 1977 تأسيس الجمعية الدولية لعلم النفس السياسي ISPP، وتأسست مجلة (علم النفس السياسي) عام 1979 (هوتون، 2015: 47-55).

وكان ل (غراهام والاس) إسهامه في هذا المجال، فقد نشر عام 1921 كتاباً أسماه (الطبيعة الإنسانية في مجال السياسة)، وضح فيه النشاط السياسي للبشر في ضوء الأفكار والمفاهيم التي كانت سائدة في زمنه، مثل أفكار (داروين) التي بثها في كتابه (أصل الأنواع) حول نظرية الانتخاب الطبيعي، والبقاء للأقوى أو للأصلح. وأفكار (فرويد) حول التحليل النفسي. (راغب، 2002: 588 - 958).

وأما فرويد فهو طبيب يهودي نمساوي، وجه جل اهتمامه في معالجة مرضاه صوب الناحية النفسية، وتعد نظرياته في التحليل النفسي الأكثر ذيوماً وشيوعاً في تغيير السلوك الإنساني بوجه عام، وهو يفسر السلوك البشري تفسيراً جنسياً.

والجنس عند فرويد ليس وفقاً على المسائل التناسلية، بل إنه يمتد إلى مختلف المناطق التي تستدعي اللذة، وسنجد أن هناك فترتين متميزتين من الحياة الجنسية، ترتبط أولاهما بمرحلة ما قبل التناسلية (البلوغ)، ويغطي الجنس فيها ما أسماه (المناطق الشبقية) وهي الفم والشرح والأعضاء التناسلية، وهذه الفترة التي تبني عليها ملامح شخصية المستقبل. وفي هذه المرحلة يتعلق الطفل بوالديه. ثم تأتي المرحلة التناسلية التي يأخذ المراهق فيها بالانجذاب إلى الجنس الآخر، وتستمر حتى الشيخوخة. (هال، 1970: 121).

ولعل أشهر نظريات التحليل النفسي ذات العلاقة بموضوع البحث: نظرية الحرمان والإحباط، ونظرية التعويض، والنظرية النرجسية. وسيسمّ تناول كل منها في مطلب مستقل. وستشفع هذه المطالب بتعقيب ومناقشة جوانب النظرية بصورة عامة.

أولاً: نظرية الحرمان والإحباط

تعد هذه النظرية أبرز النظريات التي تفسر ظاهرة الصراع السياسي، وأما كيف ذلك؟ فجوابه أن أصحاب المدرسة الفرويدية يرون أن الحياة الجنسية التي يحياها الطفل تمنحه اللذة، وهي جنسية متعددة الأشكال والصور، وتعتبر عن ذاتها بمظاهر شتى، إيجاباً وسلباً؛ أما من الناحية الإيجابية فالأم ترضعه وتحضنه وتهدهده وتدله، وأما سلباً فيتمثل بالصراخ والحركة والتغوط حيث يشاء.

فإذا تجاوز الطفل هذه المرحلة إلى ما بعدها فإنه سيحس بصدمة جراء مفارقتها الفردوس الذي كان يعيش فيه حياة اللذة، إذ إنه سيحل مبدأ الواقع بدل مبدأ اللذة، بكل ما في هذا الواقع من منع وإكراه وإلزام، ولكن الحاجة إلى اللذة أقوى من ضغط الواقع. ويشب صراع بين اللذة والواقع مما يسفر عن الشعور بالحرمان، وهذا الشعور يفضي إلى الصراع الاجتماعي فلما أن تكبت حاجة اللذة (الليبيدو) في اللاشعور، وإما أن تستحيل إلى حاجة من طبيعة ثانية بالانتقال أو الاستعاضة... وفي هذا يقول نورمان براون: "إن العدوان ينشأ عن تمرد الغرائز المخيبة على عالم فقد الحياة الجنسية" (دوفرجه، د.ت: 41، 42).

وربما كان هذا التعليل للصراع غير مقنع في نظر فرويد، فعززه بتعليل آخر في أخريات حياته، فوجه النظر إلى نوع آخر من الغرائز أسماه (ثاناتوس Thanatos) أي (غريزة الموت)، وجعل لها مقابلاً أطلق عليه مصطلح (إيروس) أي (غريزة الحياة)، لقد اعتقد فرويد أن العنف والعدوان ناشئان عن الصراع القائم في النفس البشرية بين إيروس وثاناتوس، بين الميل إلى إرادة الحياة باللذة (الليبيدو)، والميل إلى تدمير ذاته، ولكن الإنسان ينفر من مجابهة الموت وجهاً لوجه، فينقل إرادة تدمير نفسه إلى غيره، فينشأ بذلك العدوان والقتل.

ولقد أجريت في الولايات المتحدة سلسلة من الأبحاث تظهر العلاقة بين العدوان والحرمان، ويرى الباحثان أن العدوان يتجه في الحياة السياسية صوب الطبقات الحاكمة التي تمتلك السلطة، في صيغة معارضة متفاوتة الدرجات. ويقرن العدوان لدى الفرد عادة باستخدام القوى الجسمية، ولكن الخطر يتعاضد حين يتخذ العدوان طابعاً جماعياً، فما إن يجد الإنسان نفسه بحضور رهط حتى تصبح حركته لاشعورية أحياناً (بوتول، 1981: 89، 90).

ويقول جوستاف لوبون عن سيكولوجية الجماهير، إنه: "بمجرد أن ينطوي الفرد داخل صفوف الجمهور فإنه ينزل درجات عديدة في سلم الحضارة. فهو عندما يكون فرداً معزولاً ربما يكون إنساناً متقناً متعلّماً، ولكنه ما إن ينضم إلى الجمهور حتى يصبح مقوداً بغيريته، وبالتالي همجياً، وهو عندئذ يتصف بعفوية الكائنات البدائية وعنفها وضراوتها وحماستها وبطولاتها أيضاً ...

إن الفرد المنخرط في الجمهور هو عبارة عن حبة رمل وسط الحبات الرملية الأخرى التي تذروها الريح على هواها". (لوبون، 1991: 60) ويقول كذلك: "إن الجماهير غير ميالة كثيراً للتأمل، وغير مؤهلة لمحاكمة عقلية، ولكنها مؤهلة جداً للانخراط في الممارسة والعمل، والتنظيم الحالي يجعل قوتها ضخمة جداً" (لوبون، 1991: 45) وهو يعلل هذا السلوك غير المتعقل لدى الجماهير بقوله: "إن غرائز التوحش الهدامة هي عبارة عن بقايا العصور البدائية النائمة في أعماق كل منا". (لوبون، 1991: 79). وما يقوله لوبون واقع مشاهد، إذ تعبر الجماهير عن غضبها أحياناً بطريقة غير مسؤولة، بتدمير الممتلكات الخاصة والعامة، والهجوم الأرعن على أفراد الخصم، والمحاكمات الميدانية والفورية... وكما قال لوبون نفسه: إن الجماهير غالباً ما تكون مجرمة، ولكنها غالباً ما تكون بطلة.

المطلب الثاني: نظرية النقص والتعويض

³ لبيبدو lipido مصطلح يعني في اللاتينية شهوة أو رغبة، ويطلق على طاقة تلك النزوات ذات الصلة بكل ما يمكن أن يدخل تحت اسم الحب، فهو التعبير الدينامي عن النزوة الجنسية في الحياة النفسية. (لابلانز، 1987: 428، 942)

عطفاً على مراثيات فرويد حول الغريزة الجنسية، وأنها سائقة لشتى صنوف السلوك البشري، فإنه يرى أن الشبق قد يكون ثمرة للقوة الجنسية لدى المرء، ويمكن أن يكون نتيجة لعجز جنسي يدفع صاحبه إلى تأكيد ذاته إخفاء لنقصه، وهكذا فإن الرغبة في السيطرة والتسلط يمكن أن تعبر عن قوة حقيقية وطاقة متفجرة لدى الشخص، ويمكن أن تكون ثمرة عجز الفرد عن فرض احترامه على الآخرين، والشعور بالفشل والإخفاق والنقص، ومن ثم فإنه يتجه إلى الاتجاه المعاكس ليفرغ جام غضبه على الآخرين في صورة استبداد وتسلط مشوبين بالعنف، تعويضاً عن هذه الحالة التي تسكنه، والقلق الذي يؤرقه (دوفرجه، د.ت: 41-43)

وإن الشعور بالإخفاق يقترب غالباً بعقدة الإثم، مما يدفعنا إلى تشخيص هذه الحالة، فنسعى إلى أن نخلع على الآخرين مسؤولية ما جرى، دون أن نكلف أنفسنا عناء التحقق من السبب الحقيقي وراء ذلك، وهذا لا يعني بالضرورة إطراد رد الفعل على هذا النحو في كل حال، إذ إن عقدة الشعور بالإثم تدفع صاحبها أحياناً إلى الإغلاء، حيث يستحيل الإخفاق إلى بطولة، فيتوق البطل إلى التضحية فيطلب الشهادة بدلاً من أن يغرق في مستنقع الرذيلة والإجرام. (بوتول، 1981: 89، 90).

وتعزيراً لهذه النظرية يرى (ادلر)، وهو أحد علماء التحليل النفسي المنشقين عن فرويد، أن الاستبداد كثيراً ما يكون تعويضاً عن الإحساس بالنقص، ولا سيما من تلك القيادات الدكتاتورية التي لم نؤت بسطة في الجسم، فكانوا من ذوي القامات القصيرة، من أمثال قيصر ونابليون وهتلر وستالين وموسوليني وفرانكو وغيرهم.

ويمضي ادلر إلى القول كذلك أن الميل إلى الاستبداد وحسب السيطرة غريزة بشرية تعد المحرك الأساسي للإنسان، وهو يحلها محل (الليبيدو) أو حاجة اللذة التي يقول بها فرويد (دوفرجه، د.ت: 45، وفتح الباب، 1993: 1/102).

ولا بد من الإدراك بأن الشعور بالنقص والإخفاق ليس شأنًا فردياً يعبر عن ذاته بطريقة مواربة تعويضاً عن هذا الشعور، بل إنه قد ينطبق على المجتمعات أو بعض الشرائع الاجتماعية، ومثاله أن أشد الطبقات عداوة للسود في جنوب أمريكا هي الطبقات الفقيرة والوضعية من البيض، وإذا علمنا أن السود يحتلون المرتبة الأخيرة في السلم الاجتماعي، فإن الطبقة الفقيرة من البيض تمارس نوعاً من الاستعلاء والغطرسة بحق السود، شعوراً بأنهم أعلى منهم مرتبة، فتقودهم حالة الدونية إلى إظهار أنفسهم بأنهم أهل قدر واقتدار، وفي محاولة لتأكيد ذاتهم، وأنهم أعز وأجل، وهم يأفنون من أن يستووا مع السود في مؤخرة المجتمع. (فتح الباب، 1993: 1/157)

المطلب الثالث: النظرية النرجسية والشخصية الكاريزمية

الحديث عن الشخصية النرجسية والكاريزمية ذو صلة بموضوع الصحة النفسية للقيادات السياسية، فالنرجسية مصطلح تولد من أسطورة يونانية تحكي أن شاباً وسيماً اسمه (نارسيوس) وقع في حب صورته. (هوتون، 2015: 337) إشارة إلى أولئك القادة المسكونين بحب ذاتهم، إلى حد اللاتياث بجنون العظمة. ويعد (إريك فروم) عالم النفس الأمريكي المشهور من أوائل من عنوا بدراساتهم هذه الشخصية، يقول الدكتور (نبيل راغب) إن هذه النرجسية كانت هي الدافع الأساسي وراء أبشع صور الدكتاتورية والفاشية خاصة عندما يتوحد الزعيم مع أمته، ويظن أن لا حياة لها بدونه، فهو القائد والمنقذ والمخلص ورافع رأسها بين الأمم، ولذلك لا يملك أحد حق معارضته؛ لأن هذه المعارضة يمكن أن تصل إلى حد الخيانة العظمى". (راغب، 2002: 593)

وقد توصف هذه الشخصية أحياناً بـ (الكاريزمية)⁴ وهي ما يعبر عنها بالقيادة الملهمة، أو القيادة المؤهوبة، أو التاريخية. ومن طريف ما يذكر في هذا المقام ما أقدم عليه الحزب الحاكم في غانا (في الستينيات من القرن الماضي) من حث الجماهير على نعت الرئيس (نيكروما) بـ (المسيح الأسود).

وقد طلب الرئيس الكونغولي (موبوتو) أن يضاف لقب (سيسيكو) إلى اسمه، ويعني الشجاع المنتصر أبداً، وهو الذي يخلف النار والدمار وراءه حيث ما حل. (الزيات، 1990: 328 في الحاشية).

ولعل معالم هذه الشخصية وجدت في بعض القيادات العربية التي جلبت النكبة عام 1967، إذ راحت تعلن أن إسرائيل لم تكن تهدف إلى احتلال البلاد، وإنما هدفها إسقاط الأنظمة التي يتربعون عليها.

⁴ الكاريزما charisma كلمة إنجليزية مشتقة من التعبير اليوناني karismata الذي يعني الهبة أو العطية، وقد استخدمت لدى فلاسفة المسيحية الأوائل للدلالة على ما اختص الله الرسل والأولياء الصالحين من خوارق وكرامات، ثم استخدمها علماء الاجتماع السياسي على النحو الذي قدمنا. (الزيات، 1990: 319) ولا يستبعد الدكتور عبد الكريم خليفة أن يكون المصطلح لأجنبي charisma مشتقاً من المصطلح العربي (كرامات) باعتبار القائد الكاريزمي يتمتع بكرامات أشبه بكرامات الأنبياء والأولياء الصالحين. (خليفة، د.ت: 86 في الحاشية) ويبدو في نظري هذا التوفيق بين المصطلحين، ذلك أن الكلمة الإنجليزية جذورها اليونانية الغائرة في القدم.

إن بلاء وجود مثل هذه الشخصية يبدو محدوداً في إطار العلاقات الداخلية بين القائد وشعبه، ولكن الأمر يتعاضد على الصعيد الدولي حين تستطيل قامات هؤلاء القادة ليفرضوا إرادتهم على الشعوب الأخرى، في صورة حروب غير مشروعة، لا دافع لها إلا إرواء جنون العظمة الذي يعصف بهم، ليكونوا هم أول من يدفع الثمن.

ولا مكابرة في أن بعض هؤلاء القادة لهم من الرصيد والانجازات ما يكافئ هذا الإحساس بالعظمة الذي تحتقن به نفوسهم، من أمثال روزفلت وونستون تشرشل من القادة ذوي النرجسية العالية، لكن ما كل ما يلمع ذهباً. ويذكر في هذا المقام قول الشاعر:

عذرتنا النخل في إبداء شوك
فما للعوسج الملعون أبدى
يذب به الأنامل عن جناه
لنا شوكاً بلا ثمر نراه

وثلة من هذه القيادات تحكمها العقلانية في التصرفات، في اتساق مباشر مع حب الذات، ولكن لنذكر أيضاً أن كثيراً منهم من تردى وأردى، فكان شؤماً على قومه والآخرين من أمثال هتلر وموسوليني ونبيرون وغيرهم من قيادات العالم الثالث.

النقد والتقييم:

1- إن ما انتهى إليه فرويد بشأن التحليل النفسي لا يمثل أكثر من سوانح وخواطر، ويخطر في البال أنه لو كان له بقية من عمر ما بقي على قوله هذا. لقد ابتدأ فرويد حياته بالقول إن أكبر قوة دافعة للنشاط البشري هي الجوع والحب، وهو يصرح بذلك في كتابه (قلق في الحضارة) فيقول: "وفي بادئ الأمر، وفيما ما كنت أتخط في حيرة بالغة، وجدت نقطة ارتكاز أولى في فرضية الشاعر الفيلسوف (شيللر) التي تقول إن الجوع والحب ينظمان حركة عجالات هذا العالم، فالجوع كان يمكن أن يكون مثل تلك الدوافع الغريزية التي تريد الحفاظ على الفرد، بينما كان الحب ينزع صوب المواضيع. ووظيفته الرئيسية التي تلقى كل تحبيذ وتأيد من الطبيعة هي الحفاظ النوع". (فرويد، 1979: 80، 79)

ولقد عدل فرويد عن نظريته في الجوع والحب إلى النظرية الجنسية وهو في الرابعة والستين من العمر، وأجرى تعديلاً على نظريته في الدوافع، وقلب رأساً على عقب نظريته في القلق، وعمد إلى وضع تصميم جديد للشخصية الإنسانية (هال 20، 19: 1970)

2- وهو في تناوله للشخصية يضعنا أمام معركة بين ال (هو) والأنا والأنا الأعلى، وال (هو) يريد الانطلاق، والأنا يمنعه من ذلك أحياناً، والأنا الأعلى يعتمد إلى كبت رغبات ال (هو)، وهي معركة بلا جنود، ولا يعرف -على وجه التحقيق- كيفية هذا الصراع. (حمزة، 1980: 115)

3- في حديث له عن غريزة الموت، وميل الإنسان إلى العدوان والتدمير، نراه ينزع في تحميل مسؤولية الشر إلى الله، لا إلى الشيطان ولا إلى النفس الأمارة بالسوء، فهو يقول: (إن الشيطان ما يزال خير ذريعة لتبرئة الله، وهو يؤدي هنا نفس مهمة (التخفيف الاقتصادي) التي يجبر العالم الذي يسود فيه المثل الأعلى الأري، الإنسان اليهودي على أدائها... (فرويد، 1979: 84)). إنه لا ينسى أن يضع المشكلة اليهودية في الواجهة.

4 - إن إحلال الغريزة الجنسية في بؤرة الحدث، واعتبارها (الشفرة) التي يفسر بها السلوك الإنساني، دون استثناء للمنطقة الحرام (العلاقة الوالدية) يجعل الفرد في حيرة من هذه الجرأة في اقتحام ساحة المحرمات، كجرأته في الهجوم على الذات الإلهية، يقول (بنتام): "إن من النادر أن ينشأ الحب ما بين الأفراد الذين يجب أن يحرم الزواج بينهم، إن ولادة هذه العاطفة تقتضي درجة من الدهشة والأثر المفاجئ للجنة" (كلينبيرغ، 1967: 197).

ثم إن هروبه من دائرة البحث العلمي القائم على الملاحظة والتجربة والاستنتاج إلى الأساطير اليونانية، وتنزيلها على العلاقات الإنسانية والأسرية كعقدة أوديب مثلاً، يزعم الثقة بهذه النظرية. وفي هذا يقول (مليانو فسكي) أحد علماء النفس الاجتماعي: "إن علينا أن ننظر إلى هذه العقدة - يعني عقدة أوديب - كما لو كانت رد فعل على الأسرة التي ينمو الفرد في ظلها، أكثر منها مرحلة لا بد لكل طفل المرور بها في طفولته. (كلينبيرغ، 1967: 215).

ثم إن (مليانو فيسكي) لاحظ أن الأسرة التروبندية تشدها علاقات قوية بين الولد وأبيه، وصاحب السلطة هناك هو خال الولد، فإذا كان لا بد من الثورة إذن فعلى الخال لا على الأب.

لهذا الذي قدم وغيره من أسباب وجد بعض أتباع فرويد ينفصلون عنه، مثل يونج وأدلر، كما قام بعضهم الآخر بإدخال تعديلات على بعض جوانب نظريته، كما نجد ذلك في كتابات "كارن هورني" و "سوليفان" وغيرهما. (غنيم، 1978: 514) لقد كان فرويد صاحب فلسفة ولم يكن صاحب علم، وكان اعتماده على الحدس أكبر من اعتماده على التجربة، وفي هذا يقول (فلوجل): "إن المشكلة التي تواجه التحليل النفسي حالياً هي أنه لديه الكثير جداً من الفن، والقليل جداً من المنهج العلمي الذي يمكن تطبيقه

على الملاحظات المضبوطة تجريبياً، والقابلة للتكرار" (فلوجل، 1979:199) ويقول عن فرويد: "وينبغي أن نسلم أن أساليبه أقل دقة من تلك التي يستخدمها علماء النفس التجريبيون، ولكن نتائجها تبدو من بعض النواحي أكثر ضخامة" (فلوجل، 1979:202) وهكذا تنتهى النظرية ويبقى الحطام.

المبحث الثالث: النظريات الاجتماعية بشأن نشأة الحرب

وقد نوهنا في مقدمة البحث إلى موقع ظاهرة الحرب ضمن الظواهر الأخرى، ونستعيد هنا قول جاستن بوتول: "إن الحرب أروع المظاهر الاجتماعية بلا خلاف، وإذا كان علم الاجتماع - قال دوركايم - التاريخ مفهومهما على صورة ما، استطعنا أن نقول إن الحروب هي التي ولدت التاريخ". (بوتول، 1981:5).

غير أن للعلماء اختلافاً في تحديد ما هو اجتماعي، فمن قائل بأنه النظام الاجتماعي (بيرس كوهين)، وقائل بأنه البناء الاجتماعي (جون ريكس)، وثالث يحدده بالتكوين الاجتماعي الاقتصادي وما يرتبط به من بنى وعلاقات اجتماعية (كونستا نتينوف + كيل). (عبد المعطي، 1981:31).

ولما كان السلوك الإنساني وتفسيره يعد لب نظرية علم الاجتماع، وأخذاً بالاعتبار الخلاف المتقدم في تحديد ما هو اجتماعي، فإن الحديث عن نظريات نشأة الحرب من الناحية الاجتماعية يتجه بنا إلى ساحة الصراع العرقي والقومي والطبقي، وهذا ما سيتم توضيحه في المطلبين التاليين:

المطلب الأول: النظريات المتعلقة بالصراع العرقي والقومي

يتفرع الحديث في هذه النظريات إلى فرعين، نبين في أولهما معاني المصطلحات، ثم نبين في الفرع الثاني النظريات التي تفسر نشأة الصراع في هذين القطاعين.

الفرع الأول: معنى العرقية والقومية:

أولاً: معنى العرقية (الأثنية)

يرجع لفظ العرقية (ethnicity) في أصل وضعها إلى كلمة (إثنو) اليونانية والتي تعني (وثني)، ثم تطور معناه لاحقاً، حيث أصبحت تستخدم في الولايات المتحدة، إبان الحرب العالمية الثانية، للإشارة إلى اليهود والإيطاليين والإيرلنديين ممن اعتبروا بمستوى أدنى بالنسبة للجماعة المهيمنة ذات الأصل الإنجليزي.

ومفهوم العرقية يختلف عن مفهوم العنصرية (race). إذ يرى (مايكل بنتون) أن العرقية مفهوم يعكس التماثل الإيجابي للجماعة، أما العنصر فيشير إلى التصنيف الفئوي السلبي، ويرى (بيرغ) أن العرقية عموماً أكثر اهتماماً بضرورة التعرف لـ(نحن)، بينما العنصرية أكثر توجهاً نحو تصنيف الـ(هم). وهكذا يبدو أن العرقية مصطلح يدل على الإدماج الإيجابي، بينما يبدو أن العنصر مصطلح سلبي يرتبط بالإقصاء. ومع ذلك فإن التمايز بين المفهومين يبقى إشكالياً. (أركسن، 2012:15-12).

ولقد كان القرن التاسع عشر هو قرن الفكر العرقي والعنصري بامتياز، حيث شاع فيه تصنيف الشعوب إلى أعراق متفوقة، أو عليا، وأخرى متخلفة أو دنيا، حتى عد ذلك أمراً مفروغاً منه. فالفرق بين الشعوب أكبر من الفروق بين الأفراد، فبعضها أقدر من بعض على تولي القيادة والسيطرة، وهذا يفضي إلى الصراع بين العروق الدنيا والعليا. (دوفرجه، د.ت: 21، 22).

وقد كان الكاتب الإنجليزي (ه.س. تشمبرلن) من أشد المتحمسين لهذه النظرية، وقد ألف كتاباً أسماه (أسس القرن العشرين) عام 1999 أبدى فيه إعجابه بالشعب الآري الألماني، حتى إنه تجنس بالألمانية عام 1916، وحاول تشمبرلن أن يبرهن على أن جميع عباقة العالم كانوا من الجنس الآري، منهم يوليوس قيصر، واسكندر الكبير، ليوناردو دافنشي، جاليليو، فولتير، ولافوازييه، حتى إن المسيح نفسه عنده لم يكن يهودياً، بل هو آري جرمانى (دوفرجه، د.ت: 33، 34) وقد اعتنق زعماء النازية كهتلر هذه النظرية، وانعطفوا بالنظرية إلى معاداة السامية والقول بأن الجنس الآري هو الجنس غير اليهودي، وأن الصراع السياسي هو الصراع ما بين هذين الجنسين. وكان لهذا الفكر آثاره القوية في نشوء الحرب العالمية الثانية.

ونجد تجليات هذه النظرية في الإرث اليهودي الذي أحل اليهود في موقع (شعب الله المختار) و أن الشعوب الأخرى خلقت لخدمتهم، و ما تزال هذه النظرية تأخذ طريقها في التطبيق على أشدها في المناطق المحتلة. يقول الأستاذ (موشي زحيرمان) رئيس قسم الدراسات الألمانية في جامعة القدس العبرية في صحيفة القدس "يروشلايم" في 28 نيسان عام 1995: "ثمة قطاع كامل من السكان اليهود لا أتحدث في تعريفه على أنه نسخة عن النازيين الألمان، انظروا إلى أولاد المستوطنين اليهود في الخليل، إنهم يشبهون تماماً الشبيبة الهتلرية، فمنذ طفولتهم يشربونهم فكرة أن كل عربي سيء، وأن كل من ليس يهودياً ضئلاً، ويجعلون منهم

أناساً مصابين بالذهان الهذيان. هم يعتبرون أنفسهم عرقاً متفوقاً مثل الشبيبة الهتلرية. "رجب عام زئيفي" الوزير من عام 1990 إلى 1992 في حكومة شامير، يطلب طرد (نقل) جميع الفلسطينيين من المناطق، كان هذا هو البرنامج الرسمي للحزب النازي، طرد جميع يهود ألمانيا ". (غارودي، 1996: 283).

ثانياً: معنى القومية

يعرف جوشوا سيرل - وايت القومية بأنها إحساس بالانتماء أو التماهي مع جماعة من الناس، تشترك بالتاريخ واللغة والمنطقة الجغرافية والثقافة، أو تشترك في تشكيلة من هذه العناصر... (هوتون، 2015: 277).

ومثل هذا الشعور بالانتماء إلى جماعة صغيرة كانت أو كبيرة، أقرب إلى الطبيعي، والله تعالى يقول: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا". (سورة الحجرات: 13)، وكما أن للتعارف والتآلف موقعهما في تاريخ المجتمعات، فإن الدعوة إلى التقوقع والتمترس وراء القوميات مكانهما كذلك. وقد يكون صحيحاً أن الشعور القومي كان هو السائد في الحضارات القديمة، من يونانية ورومانية ومصرية وفارسية... وكان يشكل دافعاً للصراع بين تلك الأمم.

غير أن للقومية بالمعنى الاصطلاحي الدارج صلة بالتحويلات التي عاشتها أوروبا بعد حركة الإصلاح الديني التي قادها "مارتن لوتر" مما أدى إلى بعث النزعات القومية، ونشوء الدول على أنقاض الإمبراطورية القديمة، تقودها كبريائها القومية، ثم ما لبث أن تسلس الفكر القومي إلى ساحة الخلافة العثمانية، جرياً مع قول القائل: (إذا عطست فرنسا رشحت أوروبا). ونقول تبعاً لذلك: إذا عطست أوروبا رشح عالمنا العربي والإسلامي، وهكذا بدأنا نشهد انبعاثاً للفكر القومي لدى الأتراك، فيما يسمى بالدعوة الطورانية، وهي دعوة قومية تدعو إلى العودة بالأتراك إلى جاهليتهم الأولى قبل الإسلام، وبالمقابل فقد تحركت دعوات مضادة تدعو للقومية العربية، وكان الغرب ينفخ في جراب كل من هاتين القوميتين حتى انفجر الصراع بينهما بصورة أودت بالخلافة الإسلامية.

الفرع الثاني: أشهر نظريات الصراع العرقي والقومي

تعددت النظريات التي تفسر نشأة الصراع العرقي (الإثني) والقومي، وفيما يلي بيان بأبرز هذه النظريات:

أولاً: نظرية الهوية الاجتماعية

تفترض بعض الصيغ الفكرية للفلسفة الجماعية أن هوية المرء المشتركة مع الجماعة التي ينتمي إليها لا بد أن تكون هي الهوية الرئيسية.

ويرى (هنري تاجفل)، أحد القائلين بهذه النظرية، "أن الأفراد يملكون دافعاً قوياً للتماهي مع الجماعة الداخلية، لأن ذلك يقوي من تقديرهم لذواتهم ولهذا السبب تسعى إلى التماهي مع جماعات ذات مكانة عالية". كما يرى تاجفل أن هذه الحاجة الدافعة هي التي تقودنا إلى محاربة أعضاء جماعتنا الداخلية، والتحيز ضد أعضاء الجماعة الخارجية. (هوتون، 2015: 322).

وتعد هذه النظرية الأكثر انتشاراً لفهم سيكولوجية القومية، فهي تتطوي على الاستبعايدات والرؤى في العوامل التي تؤدي إلى تماسك الأمم، مثلما تتضوي على العمليات التي تدفع الجماعات إلى الصراع في الوقت ذاته.

وتنتقد (ليون هادي) هذه النظرية بأنها تقلل من دور الأفراد في صنع هوياتهم ثم تغييرها تالياً، فضلاً عن أن الأفراد يستطيعون أن يغيروا قوميتهم، ثم إن الفروق الشخصية بين الأفراد قد تؤثر في درجة تبنيهم للهوية القومية. (هوتون، 2015: 284-285).

ثانياً: نظرية الصراع الواقعي بين الجماعات

تقوم هذه النظرية على فكرة مؤداها أن الصراع ينشأ نتيجة التنافس بين الجماعات، إذ تصبح معادلة (نحن) و(هم) هي التي توجه العلاقات بين الأطراف، ثم يستحيل التنافس إلى عداة يتنامى مع الزمن نتيجة التعصب من كل لفريقه، على غرار ما يجري بين الفرق الرياضية.

وإن الأخذ بهذه النظرية يفسر وجود الصراع بين القوميات المتناحرة، ولكنه يتعدى القول بالصراع في القومية إلى دوائر أخرى، كالدايرة الدينية أو العرقية أو الطبقيّة أو غيرها، فيكفي أن توضع جماعتان في وضع تنافسي حتى تشكل البداية لنواة الصراع بينهما. وقد انتقدت هذه النظرية بأنها تحل نوعاً من العلاقة الطردية بين التنافس والصراع، وليس ثمة من حتمية ولا اطراد، فقد يقوم التنافس بين الفرقاء، دون أن يقضي إلى صراع. وقد تشب العداوة بين الجماعات على غير قاعدة من التنافس.

ثالثاً: نظرية السيطرة الاجتماعية

ترتبط هذه النظرية باسم "جيم سيدانوس"، ومن أنصارها (مونرو) و (هانكن) و (فان فشتن). ويرى هؤلاء أن جميع المجتمعات الإنسانية قائمة على أساس ترانتي، تكون فيه جماعة مهيمنة، وأخرى خاضعة أو تابعة. ومن ثم فإن هذه النظرية ترى في

المجتمع كياناً اضطهادياً بطبيعته، وأن اضطهاد الجماعة للفرد يمثل الوضع الطبيعي في العلاقات البشرية. ويقول سيدانيوس: "إن معظم أشكال الاضطهاد، بما فيها العنصرية والتمييز الإثني (بما فيه اضطهاد الأقليات الدينية والجنسية، والتعصب القومي، والطبقية، إضافة إلى العديد من الاتجاهات الاجتماعية والدوافع الإنسانية، والمؤسسات الاجتماعية، تنشأ جميعها للحفاظ على تماسك هذا البناء التراتبي". (هوتون، 2015: 285)

ويبدو الفرق بين هذه النظرية ونظرية الهوية الاجتماعية، أن نظرية الهوية الاجتماعية تحل الجماعات المتصارعة في وضع متكافئ، بينما ترى هذه النظرية أن الجماعات الدنيا تخضع لرغبة الجماعة العليا في كثير من الحالات، وآية ذلك ما وجد من محاباة السود للبيض في فترة التمييز العنصري في الولايات المتحدة الأمريكية.

رابعاً: نظرية تنازع البقاء

صاحب هذه النظرية هو (تشارلز داروين) العالم الانجليزي المولود عام (1809) والتي جسدها في كتابه (أصل الأنواع) الذي نشره عام (1859).

سميت هذه النظرية (نظرية التطور). والعوامل الطبيعية التي تؤدي إلى التطور خمسة هي: الوراثة (وتعني أن الشيء يأتي بمشابهه)، والتحول (فأفراد كل نوع تتشابه ولا تتماثل)، والتوالد (فالتبيعة تسرف في الإيجاد كما تسرف في الإقناء)، والتناحر على البقاء (وهو نتيجة حتمية لما في طبيعة العضويات من قابلية الزيادة والتكاثر)، وبقاء الأصلح (فالأفراد ذوو الطبيعة الأقوى يكونون أكثر قابلية للبقاء). (داروين، د.ت: 38-194)

وإن هذه النظرية تفترض أن كل فرد لا بد أن يصارع الآخرين ليبقى، ولا يبقى إلا من هم أفضل، والانتخاب الطبيعي يكفل بقاء الأقوى إذا كان الحال هكذا مع الأفراد فإن الأمر نفسه يسري على المجتمعات، وهذا ما أوجد "الداروينية الاجتماعية" التي تقول باستمرارية المجتمعات والأمم المؤهلة أساساً للبقاء. ويقول (برنار برودي) "وهكذا يمكن الاستنتاج أنها دعوة مبطنة للحرب التي ألفناها مجالا لإثبات وجود الفرد وترقية نفسه إلى ما هو أعلى وأسمى". (برودي، 1985: 118).

ولقد كانت هذه النظرية أساساً لظهور ما يسمى الطبقة الممتازة أو الصفوة، كما كانت أساساً انطلق منه الصراع في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقد وجد هتلر في هذه النظرية بيئة خصبة لانتعاش نظريته العنصرية.

نقد وتقويم:

- 1- إن تفسير الصراع تفسيراً أحادي البعد يحمل قدراً من المجازفة في التقدير؛ فإن شبكة العلاقات الاجتماعية أعقد من أن يحوطها تنظير أو تفسير مفرد، والركون إلى النظر بعين واحدة قمين بألا يظهر الصورة على واقعها.
- 2- إن القول بتميز بعض القوميات والأعراق على بعضها من ناحية بيولوجية يعيد إلى الذاكرة العقائد التلمودية في استعلاء اليهود، وأنهم شعب الله المختار، وأن الأمم الأخرى خلقت لخدمتهم، الأمر الذي أفضى بهتلر أن يبادلهم عقيدتهم بأخرى مضادة، كلفت اليهود ثمناً باهظاً في ألمانيا، ثم كلفت هتلر وألمانيا هزيمة منكرة في الحرب العالمية التي كان سبباً في إشعالها.
- 3- إن التعامل مع الجوانب القومية والعرقية باعتبارها وقائع مادية قائمة أمر يقبل الجدل، وأما القفز عن الواقع واتخاذ ذلك فلسفة حياة، فذلك مدعاة للاحتكاك ثم الاشتباك بين القوميات المختلفة والأعراق المتباينة.

المطلب الثاني: نظرية صراع الطبقات

تنمى هذه النظرية إلى كارل ماركس اليهودي الألماني، الذي عاش ما بين (1818-1883) وصديقه فريدريك إنجلز (1820-1895). ونفذها من بعدهما لينين وستالين بقوة الحديد والنار، فيما عرف بالثورة الحمراء في روسيا عام 1917.

يرى ماركس أن العامل المادي هو أساس كل التطورات التاريخية في المجالات المختلفة، من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية... وأن سبيل التطور هو الصراع بين الطبقات، ونظراً لأن العامل المادي هو الأساس في الصراع، لذا فإن من المناسب بيان ما للعوامل المادية الاقتصادية من أثر في إنكاء الحروب، وتتبع بالحديث عن الصراع الطبقي من بعد.

الفرع الأول: العامل الاقتصادي والحروب

يذهب أصحاب نظرية الاقتصاد الحر إلى أن المنافسة التجارية الحرة هي الضمان الوحيد للسلام، فمن شأن هذه المنافسة أن تخلق اقتصاداً عالمياً تكون فيه كل دولة معتمدة على النظام التجاري العالمي، مما يبعد شبح الحروب حفاظاً على هذه المؤسسات والنظم الاقتصادية العالمية، إلى هذا ذهب آدم سميث، وجون ستيوارت مل، وكورديل هول، وغيرهم. (بوتول، د.ت: 13، 14)

وهذا الكلام الجميل ينقضه الواقع، واقع البلاد الأخذة بالاقتصاد الحر قبل غيرها، حتى لقد أثر عن اللورد (ليونيل روبنز) أحد أبرز اقتصاديي الإنجليز قوله: "ما من حرب إلا وهناك سبب اقتصادي وراءها". ويقول (يوجين ستيلي) صاحب كتاب (الحرب

والاستثمارات الخاصة): "لا بد من الاعتراف أن السياسة الاستعمارية حاولت التغلغل في الشرق الأقصى عن طريق المشاريع الاقتصادية قبل التوجه السياسي". ويرى (ولتر ميلر) في كتابه: (الطريق إلى الحرب) الذي نشره عام 1935 أن الولايات المتحدة لم تدخل الحرب العالمية إلا لحماية ديون مصالح الأسلحة لدى دول الحلفاء، وبتحريض من أصحاب المصالح أنفسهم. (رودي 1985: 126-130).

وإذا كان الغالب على الدول الاستعمارية هو وفرة الإنتاج لديها، مما يدعوها إلى البحث عن أسواق استهلاكية في العالم الثالث غالباً، فإن الباعث على الحرب قد يكون هو العوز والحاجة، شأن الحروب في المجتمعات البدائية القديمة، دون تبرئة الدول الاستعمارية من هذا الباعث، سعيًا وراء حاجاتها من المواد الخام من الدول الأخرى، كالمعادن والبتترول، في تسابق محموم بين هذه الدول.

ولا يغيب عن الذهن أن تقسيم دول العالم إلى شرق وغرب، وشمال وجنوب، يعكس بدوره أثر العوامل الاقتصادية في الصراع العالمي. ففي حين أن صراع الشرق والغرب هو صراع القوى النووية العظمى فيما بينها، فإن صراع الشمال والجنوب هو صراع الضعفاء والفقراء ضد الأقوياء والأغنياء في هذا العالم. وعليه فإن التقسيم الجهوي للعالم على جهاته الأربع لا يفسر على أنه تقسيم جغرافي، كما يتبادر إلى الذهن منذ الوهلة الأولى، ولكنه تقسيم يحمل في تضاعيفه ما هنالك من صراعات بين هذه الجهات. (عبد الله، 1989: 135).

بل إن الأنظمة العالمية، من رأسمالية وشيوعية واشتراكية، تعكس عبر تسمياتها المعلنة البعد المادي الاقتصادي، وهي أنظمة جعلت من الصراع بينها عنوان حياة ومسيرة، حتى إن نظرية التعايش السلمي التي ينادي بها بعضهم للاحتكام إليها بين هذه الأنظمة، لا تعني إلغاء كل صراع بينها، وهذا ما أفصح عنه برنامج الحزب الشيوعي، إذ ورد فيه أن: "التعايش السلمي يصلح؛ لأن يكون أساساً لمنافسة سلمية بين الاشتراكية والرأسمالية في النطاق الدولي، وأن يمثل شكلاً نوعياً للصراع الطبقي بين هذين النظامين" وأن العالم ينقسم أساساً إلى معسكرين تقوم بينهما منافسة حتمية، مضمونها أن وحدة الجماعات البشرية لا يمكن أن تقوم لها قائمة إلا بانتصار أحد المعسكرين على الآخر". (توتكين، 1972: 22).

وكل هذا وغيره يقوم شاهداً يعضد ما قاله عالم الانثروبولوجيا (فرانس بواز) من: "أن الحرب، بصرف النظر عن نتائجها العديدة يجب أن تعتبر صورة من صور النشاط الاقتصادي". (فاخوري، 2003: 75).

الفرع الثاني: الصراع الطبقي

جاء في (البيان الشيوعي) الذي أصدره ماركس وإنجلز "إن تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا لم يكن سوى تاريخ نضال بين الطبقات، فالحر والعبد، والنبيل والعامي، والسيد الإقطاعي والفن، والمعلم والصانع، أي باختصار (المضطهدون والمضطهَدون) كانوا في تعارض دائم، وكانت بينهم حرب مستمرة، تارة ظاهرة وتارة مستترة، حرب كانت تنتهي دائماً إما بانقلاب ثوري يشمل المجتمع بأسره وإما بانهيار الطبقتين المناضلتين معاً". (ماركس وإنجلز، د.ت: 36، 37).

وإذ أشار البيان إلى بعض صور الصراع الطبقي في العصور القديمة، فإن الصراع الطبقي في صورته المعاصرة يحتدم بين طبقتي البرجوازية والبروليتاريا⁵، ولا بد لهذا الصراع بين الطبقتين أن يأخذ مجراه على أرض الواقع.

ويؤكد (ألبرت كامو) في كتابه (الإنسان المتمرّد) على دور العمال الذين حرّموا حرماناً تاماً من تأكيد شخصيتهم، على الانقضاض على واقعهم، فهم وحدهم القادرون على تحقيق ذاتهم، وهو يشبه الطبقة العاملة بالمسيح الإنساني الذي يكفر عن خطيئة الانحراف الجماعية، ولكن هذا المسيح، هو في الوقت نفسه، ذو انتقام، وهو ينفذ الحكم الذي قضى به التاريخ لإزالة ما تبقى من الطبقة البرجوازية. (كامو، 1983: 257).

ومن الجدير بالذكر أن نظرية الصراع بين الطبقات ليست نتاجاً ماركسياً صرفاً، فقد سبقه إليها آخرون، أما الجديد لديه فقد لخصه ماركس في ثلاث نقاط:

- 1- إن وجود الطبقات مرتبط فقط بمراحل تاريخية معينة في تطور الإنتاج.
- 2- إن النضال الطبقي يؤدي بالضرورة إلى دكتاتورية البروليتاريا.
- 3- إن هذه الديكتاتورية لا تشكل سوى الانتقال إلى إلغاء جميع الطبقات، وإلى مجتمع لا طبقي (سباين، 1969: 1016).

⁵ الطبقة البرجوازية هي طبقة الرأسمالية والمعاصرين الذين يملكون وسائل الإنتاج والذين يستخدمون العمال بأجر.

أما البروليتاريا فهي طبقة العمال الأجراء، الذين لا يملكون أي وسائل إنتاج فيضطرون إلى بيع قوة عملهم لتأمين عملهم

نقد وتقويم:

لقد نقل ماركس الصراع من دائرة الجماعات والأقوام والدول إلى دائرة الطبقات، وجعل ذلك أساس حركة التاريخ، وغالب الظن أن ماركس أو غيره لا يستطيعون إنكار دور الأديان والأيديولوجيات الأخرى في إذكاء الصراع بين أتباعها، ولا يمكن القول إن الصراع الطبقي يفسر ما بدا من الصراع بين أكبر قوتين عالميتين تؤمنان بهذه النظرية، روسيا (أو الاتحاد السوفيتي سابقاً) والصين.

وقد وجد هنالك من العلماء من ينكر التصنيف الطبقي، فهذا (جان بول سارتر) ينكر بقوة وجود شيء اسمه (طبقة) فيقول: "فالبعض يزعم أن البروليتاريا شيء واقعي، والآخرين يزعمون أنها شيء متخيل، والطرفان يتفقان على تشيئها..."، لقد وعدنا جميع هؤلاء العلماء بأن يرونا وحدة (طبقة) فأرونا تشابه قطع مجموعة من المجموعات، والحال أن الوحدة والتشابه مبدآن متضادان". (سارتر، 1965: 167).

ثم إن القول بحتمية الصراع الطبقي، كما يزعم ماركس، لا يتجاوز دائرة الإمكان، وفرق بين الحتمي والممكن. لقد كان ماركس يرى أن النظام الرأسمالي سينهار لما يمر به من أزمات اقتصادية، وما على الطبقة العاملة إلا أن تسهم في تقصير مدة انهياره، إنها مسألة أمد كما يقول، وإن كان الواقع يشير إلى انهيار الماركسية قبل ذلك فهذا (جورج مارشيه) زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي يعلن أمام الجميع في المؤتمر الثاني والعشرين للحزب عام 1976 تخليه عن مبدأ "دكتاتورية البروليتاريا" وقبوله بمبدأ تعدد الأحزاب بدل الحزب الأوحده الملهم (قرعوش، 2014: 617-618) وإن القول بـ(دكتاتورية البروليتاريا) قد أحدث نقلة من دكتاتورية البرجوازية إلى دكتاتورية من نوع جديد، تحت سياسة من القمع والعنف، جعلت (ألبير كامو) يوازن بين الشيوعية والفاشية بنوع من السخرية إذ قال: "الفاشية تمثل تمجيد الجلال للجلاد، أما الشيوعية الروسية فتتمثل تمجيد الشيوعية للجلاد. الأولى لم تحلم قط بتحرير الإنسان كله، بل بأن تحرر بعض الناس فقط عن طريق إخضاع الآخرين. وأما الثانية فتسعى في مبدئها الصميمي إلى تحرير البشر كافة عن طريق استعبادهم جميعاً بصورة مؤقتة" (كامو، 1983: 307).

الخاتمة

إن المفيد أن تخلص إلى النتائج الآتية:

1. إن ظاهرة الحرب ظاهرة موهلة في قدمها في المجتمعات البشرية، يذكيها الصراع والتدافع بين الجماعات والدول لأسباب ودوافع شتى، منها النفسية والاجتماعية وغيرها.
2. الحرب والسلام وجهان لعملة واحدة، ولسانان تعرب بهما السياسات عن نفسها بين الشعوب، والمسألة جدلية في أيهما يشكل القاعدة وأيها الاستثناء.
3. يميل جمهور علماء النفس إلى أن الحرب ظاهرة طبيعية، لها صلة بالنوازع والغرائز البشرية، في حين يذهب جمهور علماء الاجتماع إلى أنها ظاهرة طبيعية.
4. إن من الصعوبة بمكان الاحتكام إلى التفسير الأحادي البعد، وربما لامست كل نظرية من النظريات المتعلقة بنشوء الحرب جانباً من جوانب الحقيقة، وإن كان بعضها أكثر بروزاً من بعضها الآخر، وما أشبه حال هؤلاء بحال جماعة دخلوا إلى غرفة معتمة فيها فيل، فأصاب بعضهم خرطومهم، وآخر ساقه، وثالث أنيابه، ورابع بطنه، فلما سئلوا عما وجدوا راح كل منهم يصف الفيل بما وقعت عليه يده، لا يتجاوز ذلك، وما درى أن الذي قال تعبير عن بعض الصورة وليس الصورة جميعها.
5. إن كون الحرب ظاهرة طبيعية لا يعني بالضرورة أنها تتدّ عن الحدّ والتطويق، فإن كان الإنسان - بما أوتي من فطنة وسياسة - قد تسوّى له ترويض الحيوانات الكاسرة والطيور الجارحة، أترأه يعجز عن ترويض نفسه؟ ثم إن كان الأمر ممتنعاً فبم نفس نزول الرسالات الإلهية؟ ولم كانت العملية التعليمية والتعلمية والتربية المستدامة إذن؟ وإن مسألة التغيير مسألة إرادة، والإرادة - على ما ذكر الدكتور محمد عبدالله دراز - ليس معناها أن نصوغ طلباً، بل أن نصدر مرسومًا، إنها لا تعني أن نمذ يد سائل، بل هي التقدّم بخطوة فاتح" (دراز، د.ت: 194).
6. إن نظرية التحليل النفسي التي قال بها (فرويد) فيها قدر من التعمق في أغوار النفس البشرية، وفيها ما يستحق الإعجاب مثل تحليل الشخصية الكاريزمية، ونظرية النقص والتعويض في تفسير سلوك القيادات السياسية على وجه الخصوص، غير أن الأمور ترتكس عندما يربط فرويد نظريته بالغريزة الجنسية، ثم يردف ذلك بعقد وشائج بينها وبين الأساطير اليونانية كعقدة أوديب، حتى يستحيل التحليل نفسه عملاً أسطوريًا، متجاوزاً بذلك منطق العلم إلى منطق الفلاسفة، حتى استساغ بعضهم أن يقول: "إن

بحث فرويد الآن غير مصدق إلى حد كبير، إنَّ معظم أفكاره غير عملية بالكامل، وهي مساوية للتصديق بالأطباق الطائرة" (كوك، ريتشارد، كريس سميث، 2009: 106، 105).

7. يعزو جمهور علماء الاجتماع ظاهرة الحرب إلى أسباب اجتماعية، فقد يربطها بعضهم بالاعتزاز بالهوية والشعور القومي، ويعزوها آخرون إلى الاعتزاز بالعرق والشعور بالإثنية، فيما يمضي ماركس وأتباعه إلى ربطها بالصراع الطبقي.

8. لقد كان للإحسان القومية والعرقية أثر واضح في نشوء المحن والحروب عبر التاريخ بين الروم واليونان والفرس والعرب قديماً، وتَجَرَّت الساحة الأوروبية بالصراع المحموم في عصر ظهور القوميات، وزاد الطين بلة ظهور التعصب العرقي على يد النازيين والفاشيين ممَّا ألَّه الساحة الأوروبية خصوصاً ثمَّ العالم من حولها بنيران حربين عالميتين في أقلَّ من نصف قرن، أعقبت تدميرًا مروعا لحق بالبلاد والعباد.

وإنَّ سنن الله تعالى لا تتخلف فإن الذي ينتظر دعاة الصهيونية، المسكونة بدعوى تميز العرق اليهودي، وأنَّ العالم ما وجد إلا لخدمتهم، ربما سيكون أشدَّ ممَّا حاق بغيرهم من دعاة العنصرية.

وأما النظرية الماركسية التي تنادي بالصراع الطبقي سبيلاً للقضاء على الرأسمالية، خطوة أولى على طريق إقامة دولتهم العالمية، فقد وجدنا النذر تحقيق بهذه النظرية لتسبق بشائر النصر، إذ دبَّ الصراع بين أقطابها من الدول الآخذة بها، بين الصين والاتحاد السوفييتي، ثم وجدنا الصراع يدبُّ في داخل الاتحاد السوفييتي حتى انهيار الاتحاد، وعاد الأمر كما كان، دولاً قومية، وبدأ التحلل من مبادئ ماركس ونظريته، حتى آذنت شمس نظريته بالمغيب.

9. يكاد المتأمل في اتجاهات الفكر الإسلامي أن يلمس ملامح كلِّ من النظريتين الطبيعية والاجتماعية في تفسير ظاهرة الحرب؛ فأنصار المدرسة الطبيعية يجدون متكأ لهم في خطاب الملائكة ممَّا ورد في قوله تعالى حكاية عن موقفهم من استخلاف آدم في الأرض: **قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**. (سورة البقرة: 30)، ثمَّ في جريمة القتل التي أقدم عليها أحد ابني آدم ضد أخيه.

وأنصار المدرسة الاجتماعية يؤكدون على دور التناحرات القومية والقبلية والعوامل الاقتصادية وما إليها في إنكاء الحروب.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أريكسون، ت (2012) العرقية والقومية - وجهات نظر إنثروبولوجيا - ترجمة: الدكتور لاهاي عبد الحسين، مجلة عالم المعرفة العدد 393، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص 12-15
- بدوي، م (1985) فروض علمية في تفسير علاقات الحرب والسلام، جامعة بيروت العربية، ص 9، 24.
- 3بدوي، منير محمود (1997)، "مفهوم الصراع: دراسة في الأصول النظرية للأسباب والأنواع" مجلة دراسات مستقبلية، مركز دراسات المستقبل، مصر، جامعة اسيوط.
- برنيري، م (1997) المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة: د. عطيات أبو السعود. مجلة عالم المعرفة، العدد 225، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص 9
- برودي، ب (1985)، الحرب والسياسة، ترجمة: علي حداد، بيروت، دار المروج، ص 107، 136، 118، 126-130، 140.
- بوتول، ع وآخرون (1984) الحروب والحضارات، ترجمة: أحمد عبد الكريم. دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر. ص 5
- بوتول، ج (د.ت) الحرب والمجتمع. ترجمة: عباس الشربيني ود. محمد علي، دار المعرفة الجامعية، ص 45-49، 13-14
- بوتول، ج (1981) هذه هي الحرب، ترجمة: مروان الفتواي، ط1، بيروت، منشورات عويدات، ص 9-18، 89-90، 5.
- تايلور، ف (2000) قصف العقول - الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي. ترجمة سامي خشبة، مجلة عالم المعرفة، العدد 256، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص 41، 56
- التليبي، ع (2007) الحرب معضلة بحث في مجلة عالم الفكر، المجلد 36. العدد 2، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص 79، 80
- توتكين، ج.أ (1972) القانون الدولي العام - قضايا نظرية - ترجمة: أحمد رضا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 7، 22
- الجميل، س (2007) الحرب ظاهرة تاريخية، بحث في مجلة عالم الفكر، المجلد 36، العدد 2، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص 9
- حتي، ن (د.ت) النظرية في العلاقات الدولية، دار الكتاب العربي، ص 307

- حمزة، م (1980) مبادئ علم النفس، ط2، جدة، دار المجمع العلمي، ص115
- ابن خلدون، ع (د.ت) مقدمة العلامة ابن خلدون. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ص139، 115
- خليفة، ع (د.ت) أيديولوجية الصراع السياسي - دراسة في نظرية القوى - الإسكندرية - دار المعرفة الجامعية، ص 86
- داروين، تش (د.ت) أصل الأنواع. ترجمة إسماعيل مظهر، بغداد، مكتبة النهضة. ص 194، 38
- دراز، م (1998)، دستور الأخلاق في القرآن، ط10. بيروت، مؤسسة الرسالة، ص194.
- دوفرجيه، م (م.ت) مدخل إلى علم السياسة. ترجمة: د. سامي الدروبي وجمال الأناسي، دمشق، دار دمشق، ص 41-45، 21 - 33، 22، 34
- ديوي، ج (1963) الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني. ترجمة: د. محمد لبيب النجيحي، القاهرة، مؤسسة الخانجي، ص 134، 135
- راغب، ن (2002) موسوعة قواعد اللعبة السياسية - دراسة تحليلية نقدية - القاهرة، دار غريب للنشر والتوزيع، ص 588، 589، 593
- الزيات، س (1990) في سوسيولوجيا بناء السلطة، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ص329، 319
- سارتر، ج (1995) قضايا الماركسية. ترجمة جورج طرابيشي، ط1، بيروت، دار الأدب، ص167
- سباين، ج (1969) تطور الفكر السياسي - الكتاب الثاني. ترجمة: حسن العروسي، ط2. القاهرة، دار المعارف. ص1016
- عبد الله، ع (1989) العالم المعاصر والصراعات الدولية. مجلة عالم المعرفة، العدد 133، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص135
- عبد المعطي، ع (1981) اتجاهات نظرية في علم الاجتماع - مجلة عالم المعرفة، العدد (44) الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون ص 31
- عبد المنعم، س (1988) البعد الأخلاقي لقانون العلاقات الدولية، ط1، القاهرة، ص47
- غنيم، س (1978) سيكولوجية الشخصية. دار النهضة العربية، ص514
- غارودي، ر (1996) الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية. ترجمة: حافظ الجمالي وآخر، ط2، بيروت، دار عطية للنشر ص 283.
- غيتون، ج (1988) الفكر والحرب. ترجمة المقدم الهيثم الأيوبي وأكرم ديري، ط2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص83، 84
- فاخوري، ج (2003) مستقبل السلام العربي، ط1، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، ص75
- فان غلان، ج (د.ت) القانون بين الأمم، تعريب عباس العمر. بيروت: دار الجيل، 7/3
- فتح الباب، ر (1993) الصراعات الإنسانية والسياسية في الفكر الوضعي والديانات السماوية، ط1، القاهرة: دار النهضة العربية، 1/102، 1/157
- قرعوش، ك (2014) طرق انتهاء ولاية الحكام في الشريعة الإسلامية والنظم الدستورية، عمان: دار جليس الزمان، ص 611-618
- فرنند، ج (2016) جوهر السياسة، ترجمة فاروق عبد المجيد، ط1، دمشق، دار الفرقان للطباعة والنشر، ص 658، 659، 665، 684-698
- فرويد، س (1979) قلق في الحضارة. ترجمة: جورج طرابيشي، ط2، بيروت، دار الطليعة، ص 79-80، 84
- فلوجل، ج (1979) علم النفس في مائة عام. ترجمة: لطفي غنيم، ط3، بيروت، دار الطليعة، ص199، 203
- كامو. أ (1983) الإنسان المتمرد. ترجمة نهاد رضا، ط3، بيروت، منشورات عويدات، ص257، 307
- كلوزفيتز، ك (1988) الوجيز في الحرب، ترجمة: أكرم ديري والهيثم الأيوبي، ط2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص74، 58، 63، 475
- كوك، ريتشارد، كريس سميث (2009)، انتحار الغرب، ترجمة: محمد محمود التوبة، الرياض، مؤسسة العبيكان للنشر، ص105-106
- كلينبيرغ، أ (1967) علم النفس الاجتماعي، ترجمة: حافظ الجمالي، ط2، بيروت، دار مكتبة الحياة، ص130، 137، 197، 215
- كولر، جون (1995) الفكر الشرقي القديم. ترجمة: كامل يوسف حسين. مجلة عالم المعرفة، العدد 199 الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص158، 159
- كينيث، و (د.ت) قادة الفكر الدولي في القرن العشرين. ترجمة: د. حسين فوزي النجار، القاهرة، دار المعارف، ص259
- اللجنة العالمية للبيئة والتنمية (1989) مستقبلنا المشترك. ترجمة: محمد كامل عارف. مجلة عالم المعرفة، العدد 142، الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص422
- لويون، ج (1991) سيكولوجية الجماهير، ترجمة: هاشم صالح، ط1، بيروت، دار الساق، ص60، 45، 79
- ماركس، ك، وإنجلز، ف (د.ت) البيان الشيوعي، موسكو، دار التقدم، ص36، 37
- ملحم، ج (2007) العلم والحرب، بحث في مجلة عالم الفكر، المجلد 36، العدد2، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص244، 245
- هال، ك (1970) أصول علم النفس الفرويدي، ترجمة: د. محمد فتحي الشنيطي، ط2، بيروت، دار النهضة العربية، ص121، 19
- هنا، غ (2007) مفهوم الحرب بين نيتشة وهيدجر، بحث في مجلة عالم الفكر، المجلد 36، العدد 2، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص38، 42، 43

أبو هنطش، م (2010) علم الاجتماع السياسي، ط1، عمان، دار المستقبل، ص152،77،89،91
هوتون، د (2015) علم النفس السياسي، ط1، ترجمة: ياسين حداد، الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص47-337،322-284،279،55

The Psychological and Sociological Perspective for War Phenomenon

*Khaled Hasan, Kayed Karo'ush**

ABSTRACT

The phenomenon of war is deep in history, even called by some the Mother of History. It has been explored in detail by philosophers, political scientists, historians, psychologists and sociologists. Therefore, different theories have been put forward to explain such a phenomenon, which has always imposed itself all over the globe the present study contributes to the building of the theories related to the outbreak of wars, especially from psychological and sociological perspectives. Thus, the discussion employs the psycho-analysis and social conflict views, often based on Darwinism and Dialectal Materialism.

Keywords: War, political conflict, social conflict

*Faculty of Arts and Social Sciences, Applied Science University, Jordan. Received on 4/7/2019 and Accepted for Publication on 9/8/2019.